

مصطفى صادق الرافعي

بمناسبة تمام سنة على وفاته

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للمستاذ محمد سعيد العربي

دعت مصلحة الاذاعة الفلسطينية بالقدس الأستاذ محمد
سعيد الريان ابديع حديثاً عن فقيه العربية الكبير المرحوم-
مصطفى صادق الرافعي بمناسبة تمام سنة على وفاته في مساء الاثنين
٩ مايو سنة ١٩٣٨ ؛ وآثرته بهذه الدعوة لما كان بينه وبين
المرحوم الرافعي من صلة هياته لدراسته ورواية تاريخه والتحدث
عن أدبه وفنه ومذهبه

والكلمة التالية هي نص الحديث الذي أذاعه من محطة
القدس تلبية لهذه الدعوة .

سيداتي ، أنسائي ، سادتي
سلام الله عليكم أهل هذه الأرض الطيبة ... ومعدرة ، وشكراً ...
لكأني بكم ترهفون السمع لتسمعوا ما يمكن أن أحدثكم به عن الرافعي في
ذكره الأولي ، وما أنا بمستطيع في هذه الفترة القصيرة من الزمن أن أبلغ
ما أريد وتريدون من الحديث عن الرافعي .
لم يكن الرافعي أديباً كبعض من نقرأ لهم من أدباء الصحافة ، ولكنه كان
علماً من أعلام الأدب ، وإماماً من أئمة الدين ، وبرهاناً من براهين العربية تجالده
به حين يعوزها البرهان .

ولقد يكون من فضول القول أن أتحدث إليكم عن أدب الرافعي وآثاره
الأدبية بين أيديكم وتحت أعينكم ؛ وإنكم لتعرفون أدبه وتعرفونه بأدبه . ولكني

قد صحبت الرافعي عمراً من عمري ، فعرفته أكثر مما يعرفه الناس ، فليكن حديثي الليلة عن الرافعي الذي عرفته ...

لقد سمعت اسم الرافعي لأول مرة منذ بضع عشرة سنة ، وكنت يومئذ غلاماً حدثاً ، لا أكاد أفهم ما يلقي إليّ ، سمعت به وأنا طالب في الصفوف الأولى ، فسمعت اسماً له جرس ورنين ، وله نشيد تتجاوب أصداؤه في جوانب نفسي ، فحبب إليّ من ذلك اليوم أن ألقاه ...

ورأيت لأول مرة بعد ذلك بأشهر ، فرأيت رجلاً كبعض من أعرف من الناس : له ما لهم مما يتميز به الانسان . وقال لي صاحبي : « هذا هو الرافعي ! » وكان جالساً وقتئذ في قهوة على الطريق ، وبين يديه صحف يقرأها ، وأمامه فنجانة قهوة . فوقفت برهة أنظر إلى الشخص المائل أمامي ، لا أكاد أصدق أن هذا الشخص الذي بعيني هو الشخص الذي في نفسي ... وخطوت إليه خطوة فألقيت إليه السلام أجعله زلفي إليه ؛ فما رفع إليّ عينيه ولا ردّ التحية ... وصغرت نفسي في عيني فمضيت عنه منكسراً ذليلاً وفي النفس غيظ وألم ؛ ورائت غشاوة على صورته في قلبي ...

ومضت أيام ، ولقيته بعدها في المسجد خارجاً من صلاة الجمعة وعلى الباب زحام ؛ فزحمته بكتفي حتى سبقته إلى الباب وخلفته ورائي لا يخلص إلى الطريق ، واستراحت نفسي لآتي قد انتقمتم !

وقال لي رفيقي : « وى ! أتعرف من ذلك الذي أخذت عليه الطريق عامداً ؟ » قلت : « صه ، لا يسمعك فيسوءني جوابه ! » قال : « لا عليك ! إن في أذنيه وقرأ فلا يسمع ! »

وتبدلت في نفسي صورة بصورة ، واحتى ألم ليحل في نفسي من بعده ألم آخر ... وعرفت وقتئذ لماذا لم يرفع عينيه إليّ ولم يرد التحية ...

ولقيته بعد ذلك مرات كثيرة ، في الطريق ، وفي القهوة ، وفي السبيل ؛ وقرأت له مرات أكثر ، في الكتب ، وفي الصحف ، وفي المجلات ؛ وعرفته ، ولم أزل كل يوم أزداد عرفاناً به ، ولكنني لم أعرفه العرفان الحق إلا بعد هذه الحادثة

بعشر سنين ... حين جلست اليه لأول مرة في دار كتبه من داره ، عرفته على حقيقته وفطرة نفسه ، فكأنني لم أعرفه قبل ذلك اليوم ... وما فارقه من بعد حتى فرق بيننا الموت . يرحمه الله !

إني لأحس حين أذكره الساعة كأنني لست وحدي ، وكأن روحاً حية تُطيف بي وترف حولي بجناحين من نور ، وكأن صوتاً ندياً رفيع النبرات يتحدث إلى من وراء الغيب حديثاً أعرف جرسه ونغمته ، وكأن عينين تطلان على من عالم غير منظور لتأمراني أمراً وتأمماني الفكر والبيان ، ولكنني لأرى ، ولكنني لأسمع ، ولكنني هنا وحدي ، تتغشاني الذكرى فتخيل إلى ما ليس في دنياي . هيات هيات لو هم الأمانى !

لقد كان هنا صوت يتجاوب صداه بين أقطار العربية . لقد كان هنا إنسان يملأ فراغاً من الزمان . لقد كان هنا قلم يصر صريحا فيه رنات المثاني ، وفيه أنات الوجع ، وفيه همسات الأمانى ، وفيه صرخات الفزع ، وفيه نشيج البكاء ، وفيه موسيقى الفرح ... خفت الصوت ، ومات الإنسان ، وتحطم القلم ؛ ولكن قلب الشاعر ما زال حياً ينبض ، لأن قلب الشاعر أقوى من الفناء .

في كل يوم يموت أديب من أدباء العربية وينشأ أديب ، فآين ، آين الأديب الذي ينتدب بعد الرافعي ليقف لمكمل من يحاول التقحم على قدس القرآن ؟ آين ... آين الأديب الذي يقف قلبه وبيانه للدفاع عن العرب والعربية والإسلام ؟ آين ... آين الكاتب الأملح الذي يصور طهر الحب ، وسمو الإنسانية ، وآلام البشرية ، وأفراح الحياة ؛ فتنبثق نورا في كل قلب ، وتتفجر شعورا في كل وجدان ؟ آين خليفة الرافعي الذي يقوم على سداد هذا الثغر المعطل ؟ آين حامل اللواء ، وآين صاحب القلم ؟

لقد كان الرافعي عصرا بتمامه من عصور الأدب ، وجيلاً بناسه في تاريخ العرب ، وفصلاً بعنوانه في مجد الإسلام .

كانت الدنيا تموج من حوله بأناسيها وحادثها ، وتضطرب حواليه في أمانيتها

ونوازيها ، وتصطبغ في محيطه بشهواتها ونوازعها ؛ وهو وحده يعيش من هذا المحيط المضطرب المائج المصطبغ في دنيا وحده ، لا يسمع إلا همسات روحه ، ولا يحس إلا خلجات قلبه ، ولا ينظر إلا الهدف الذي يسعى إليه . وهياًه القدر بوسائله العجيبة لهذه الوحدة العقلية منذ صباه حين سلبه السمع ، فعاش حياته بعيداً عن دنيا الناس ، ومضى في طريقه كما يمضي عابر السبيل : لا يلتقي باله إلى شيء مما حواله أو يبلغ إلى غايته . . .

لم يكن الرافعي ليعرف شيئاً في السياسة ولا له رأى فيها ؛ ولكن له هدفاً عاش يسعى جاهداً لتحقيقه : هو أن يبعث الحية الإسلامية في نفس كل مسلم ، ويوقظ النخوة العربية في قلب كل عربي ؛ فكان بذلك رسول العروبة والإسلام إلى كل مسلم وكل عربي ، فلا جرم كان بذلك أحب كتاب العربية إلى كل مسلم وكل عربي .

حياته الأدبية كلها تدور حول هذا المحور ، ومنشأته الأدبية كلها يسعى بها إلى هذا الهدف ، ومعاركه الطاحنة كلها تنشب في هذا المعترك ، وما عادى عدواً قط من أدباء العربية إلا للدين أو اللغة أو القرآن ، وما اتخذ صديقاً من رجال الأدب أو السياسة إلا للدين أو اللغة أو القرآن .

لقد حاول كثير من مؤرخي الأدب أن يتحدثوا عن الرافعي في حياته ، فقالوا شاعر . وقالوا كاتب . وقالوا أديب . وقالوا عالم . وقالوا مؤرخ . ولكنهم لم يقولوا الكلمة التي كان ينبغي أن يقال : لقد كان شاعراً ، وكاتباً ، وأديباً ، وعالمًا ، ومؤرخاً ؛ ولكنه بكل أولئك ، وبغير أولئك ، كان شيئاً غير الشاعر والكاتب والأديب ، وغير العالم والمؤرخ ، كان هبة الله إلى الأمة العربية المسامة في هذا الزمان ، لينبها إلى حقائق وجودها ، وليردّها إلى مقوماتها ، وليشخص لها شخصيتها التي تعيش باسمها ولا تعيش فيها ، والتي تعز بها ولا تعمل لها

وكان يشعر أنه وحده في الميدان والجميع إلبّ عليه ، فعاش حياته كلها يصارع ويناضل ، حتى خر صريعاً وفي يده الراية ، لم يتركها حتى انتزعها الموت من يده !

كثير ما قال عنه أعداؤه وغير أعدائه في حياته : إنه حديد اللسان . إنه لدود الخصام . إنه لا يرعى اعتباراً ، ما تقوم به الصلات بين أهل الأدب حين ينزل إلى معترك من معارك النقد ، صدقوا . ولكن ... أرأيت معرفة على البدوى الناثر لعرضه أن يسفك الدم ؟ إنه هو هو ؛ فمن ذلك كانت شدته وصرامته ولدته في الخصام : في سبيل القرآن ، ومن أجل العروبة ، ولكرامة الاسلام . كان ذلك عرضة الذي يحرص عليه أن ينتهك ، فمن ثم كانت خصوماته الأدبية كلها فيها معنى الدم الدين ، واللغة ، والقرآن ، أو العروبة والاسلام : ذلك كان مذهبه في الأدب وله كان جهاده ، حتى في الحب — وللرافعي حب مشهور — وحتى فيما أنشأ من رسائل الحب ، لم يكن الرافعي يعتبر إلا مذهبه والهدف الذي يسعى إليه : للدين وللغة ، وللقرآن ...

من شاء فليقرأ كتبه الثلاثة في فلسفة الجمال والحب ، ليرى فيها كيف تسمو روح العاشق على شهوات البشرية حتى تتصل بخالقها الأعلى ، ثم ليرى العرية أسلوباً جديداً فيه عمق الفن ودقة التعبير ووضوح الأداء حتى في الترجمة عن أعمق ما تجيش به خفايا النفس الانسانية

ولأدب الرافعي ميزة ليست لكثير من أدباء الجيل ، فهو أدب عليه طابع الخلود وتلك آداب إلى زوال : هذا أدبه بين أيدينا وتحت أعيننا ، ما تزال تدفعنا إليه دوافع من أنفسنا في فترات متقاربة أو متباعدة ، لنعيد قراءته ونتملى ما فيه من جمال وصدق وقوة . وذلك أدب الأدباء ، ما يكاد القارئ ينتهي منه إلى ما يريد حتى ينساه فلا يعود إليه ولا يذكره ، على ما فيه من لذة ومتاع !

لم يكن الرافعي يكتب تلك الكتابة الصحافية السوقية التي تلتهمس للهو

وإزجاء الفراغ، ولكنه كان يكتب ليضيف ثروة جديدة إلى اللغة، وينشئ أدباً يسمو بضمير الأمة، ويشرع طريقاً تسير فيه إلى عظمة الخلد وسعادة الأبدية ومجد التاريخ.

الرافعي! يرحمه الله! لقد عاش في خدمة العربية سبعاً وثلاثين سنة من عمره القصير، وصَلَّ بها حاضرَها المائل بماضيها البعيد، فهي على حساب الزمن سبع وثلاثون، ولكنها على الحقيقة شطر من عمر الزمان، وباب من الأدب، وفصل في تاريخ الإسلام.

لقد عاش غريباً ومات غريباً، فكأنما كان رجلاً من التاريخ بُعث في غير زمانه، ليكون تاريخاً حياً ينطق بالعبرة ويجمع تجارب الأجيال، يذكر الأمة العربية الإسلامية بماضيها المجيد، ثم عاد إلى التاريخ بعد ما بلغ رسالته. لقد خَفَّتْ الصوت، ولكنه خلف صداه في أذن كل عربي، وفي قلب كل مسلم، يدعوه إلى الجهاد لمجد العرب ولعز الإسلام.

محمد سعيد العربي